

# من مَوارد الحافظ ابن عساكر في التاريخ المجالسة

لمحمد بن مروان السعيد

سكينة الشهابي

هـ أهم مَوارد الحافظ ابن عساكر الأدبية كتاب « المجالسة » لمحمد بن مروان السعيد .  
لا تسعفنا المصادر بشيء عن مؤلف المجالسة ، ولولا ما ذكره الخطيب في تاريخه (١) لظلت معرفتنا به مقتصرة على تسمية الحافظ له في اسناده الى كتاب المجالسة ، ومع ذلك فان ما رواه الخطيب يظل مفتقراً الى الدليل الثابت الأكيد في نسبة الكتاب اليه ، على الرغم من أن القرائن التي وردت في تاريخ بغداد كلها تؤيد أن يكون الرجل مؤلف كتاب المجالسة قال الخطيب :

« محمد بن مروان بن عمرو بن مروان بن عنبسة بن سعيد بن العاص ، أبو عمر (٢) الأموي . حدث عن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني . روى عنه : محمد بن مخلد الدوري » ثم ينقل الخبر التالي من روايته : « أخبرني أحمد بن سليمان بن علي المقرئ ، حدثنا محمد بن عبدالله بن أحمد بن القاسم الدهان ، حدثنا محمد بن مخلد ، حدثني أبو عمر محمد بن مروان بن عمرو - من ولد سعيد بن العاص - حدثنا أبو حاتم السجستاني ، حدثنا الأصمعي قال : كان لأبي عمرو بن العلاء وظيفة في كل يوم : ربحان بفلس ، وكوز جديد بفلس » . ثم ينقل لنا خبر وفاته : « قرأت في كتاب ابن مخلد بخطه : سنة أربع وتسعين ومائتين فيها مات أبو عمر محمد بن مروان الأموي يوم الأحد لحدى عشرة ليلة من المحرم » .

يتضح لنا من هذه الترجمة القصيرة أن الرجل كان من أعلام القرن الثالث الهجري ، وكان من رواة الأخبار الأدبية ، وهو من أبناء سعيد بن العاص .

ومؤلف كتاب المجالسة الذي يطالعنا اسمه في تاريخ دمشق من أعلام القرن الثالث ، نعرف ذلك من موضعه في السند ، وكتابه كتاب أدب وأخبار نعرف ذلك من النقول الكثيرة التي رواها الحافظ منه . وهو سعيدي ، وقد ذكر الخطيب أنه من أبناء

سميد بن العاص ، بالاضافة الى ما بين الرجل في سند ابن عساكر وبين مترجم الخطيب من توافق شبه كامل في التسمية .

فمن المسترجح أن يكون هذا الرجل الذي ذكره الخطيب هو مؤلف كتاب المجالسة الذي احتفى به ابن عساكر هذا الاحتفاء كله ، ومن المستبعد أن يكون الأمر مجرد توافق في الاسم والنسب .

كان محمد بن مروان معاصراً لكبار علماء الحديث وأئمة الجرح والتعديل مثل البخاري ومسلم والحسن بن عرفة ، وعباس الدوري ، وكبار الأدباء ورواة الشعر والأخبار أمثال الجاحظ وأبي حاتم السجستاني ، وابن قتيبة الدينوري ، وابن أبي الدنيا ، وسيبويه أستاذ النحاة ، ولعل هذا ما جعله قليل الحظ من الشهرة ، وربما كان كتابه « المجالسة » بين الكتب الكثيرة التي سود مدادها زرقة مياه دجلة على يد التتار .

ومهما يكن من أمر فإن الكتاب ماثل أمامنا بهذه النقول التي قبسها الحافظ منه ، وكان له إليه طريق واضح هو التالي :

« أخبرنا أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن كرتيلا ، أنا أبو بكر محمد بن علي بن محمد الخياط ، أنا أبو الحسين أحمد بن عبد الله بن الخضر السوسنجردى ، أنا أبو جعفر أحمد بن أبي طالب علي بن محمد بن أحمد بن الجهم الكاتب ، نا أبي علي بن محمد ، أنا محمد بن مروان بن عمر السعدي ، أبو عمرو (٣) القرشي (٤) » .

لم يعودنا الحافظ ابن عساكر أن يصرح بأسماء الكتب التي ينقل منها ، وما كان لي أن أعرف اسم الكتاب لولا ما ورد في البداية والنهاية (٥) ، فقد روى ابن كثير خبراً من طريق هذا الكتاب صرح فيه باسم الكتاب واسم مؤلفه ، وروى الخبر من الطريق ذاته الحافظ ابن عساكر في التاريخ (٦) . أما موضوع الكتاب فتعرفنا به هذه النقول الكثيرة التي بثها الحافظ في حنايا التاريخ ، انه كتاب أدب ، ونوادر وطرائف وأشعار ، وهو فريد من نوعه لأن أخباره كلها خاصة بمعاوية ومجالسه وسياسته بالرعية .

وكانني بالحافظ الكبير لم يرو عن طريق شيخه ابن كرتيلا الا كتاب المجالسة ، حتى ان الحديث الذي رواه عنه في المشيخة كان في فضائل معاوية ومن طريق المجالسة ، قال محمد بن مروان : حدثنا أحمد بن سنان القطان قال : ثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن معاوية بن صالح ، عن يونس بن سيف ، عن الحارث بن زياد ، عن أبي رهم ، عن العرباض بن سارية قال : سمعت رسول الله ﷺ عليه وسلم يقول لمعاوية : « اللهم علمه الكتاب والحساب ، وقه العذاب » . وكذلك فإن هذا الكتاب لم يكن ضخماً ، ففي المجلدة الواحدة قد لا نمش على أكثر من خبيرين ، وقد يزيد عدد هذه الأخبار حتى يصل الى خمسة ، ولعل المجلدة التي ترجم فيها الحافظ لمعاوية قد جمع فيها أكثر ما يمكن جمعه فبلغ ما نقله في ترجمة معاوية أحد عشر خبراً تنوعت موضوعاتها بتنوع الأخبار التي أراد أن ينقلها إلينا ، نجد فيها ما روي عن الرسول ﷺ في بيان فضل معاوية والدعاء له . وتبشير به بالجنة ، كذلك نجد فيها أقوال الصحابة وبعض التابعين في معاوية وما يمتاز به من دهاء وعلم وعفو وجود ، ولا شك أن بعضها سيكون خاصاً بسياسة معاوية في الرعية وعلاقته بأشراف قريش ، ووجهائها بشكل

خاص ، والصحابة بشكل عام • ويبدو لنا في هذه الأخبار كأن معاوية قد أحسن التقدير والتدبير ، ووضع الأمور في مواضعها ، وأعطى كل شأن نصيباً كافياً من حكمته وتدبيره فدانت له البلاد ، وأذعنت له العباد •

وقد يتبادر الى الذهن أن ما بثه ابن عساكر من أخبار معاوية في تاريخه نقلاً من « المجالسة » قد عاد فلمه في ترجمته ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث وربما نعث على الموضوع الواحد ولكن من طريقين ، وبروايتين نقلهما السعدي وعنه ابن عساكر (٧) ، وهذه من المزايا الهامة التي يتصف بها تاريخ دمشق فهو على ضخامته قلماً يلجأ مؤلفه الى التكرار ، وما أكثر ما يعيدنا في مكان من التاريخ الى مكان آخر قائلاً : ذكرناه في موضع كذا فغنيننا عن اعادته ، وان دل ذلك على شيء ، فانما يدل على أن التاريخ كله كان يعيش في ذاكرة الحافظ الكبير ، ويلزم تفكيره ، وهذا مالا نجده عند غيره من المؤلفين • وأقرب شاهد على ما أقول الخطيب البغدادي في تاريخه وفي غير التاريخ (٨) •

كذلك قد يظن ظان أن مؤلف كتاب « المجالسة » أراد أن يرفع من شأن معاوية ، وأن يحيطه بهالة ضخمة من الأبهة والتقدير ، ولكن من يمعن النظر في عدد من الأخبار يرى أن مؤلف الكتاب لم يكن يقصد الى شيء من ذلك ، ولكنه حكى ببساطة أخبار معاوية مع أهله ، وأقاربه ، ومع الأشراف وجوه القبائل والشعراء الوافدين عليه ، ومع النساء اللواتي استدعى بعضهن وجاءته الأخباريات ساعيات من أجل مصلحة خاصة أو عامة • لقد كان الكتاب خاصاً بمعاوية جمع فيه مؤلفه أخبار معاوية الخليفة ولكنه جمع فيه كل ما لمعاوية وما عليه بصدق وأمانة فأظهرت أخباره كل ما لمعاوية من حكمة وحلم ورحمة ومقدرة على مداراة الخصوم ، ومعرفة بأساليب استمالتهم ، وما عليه من مكر ودهاء ، وتفضيل للمصلحة السياسية على كل شيء •

١ - كان معاوية جواداً ممدحاً غزير العطاء من أجل ذلك قصدته وجوه العرب وغص بلاطه بالشعراء والوجهاء ، وكان مجلسه لا يخلو من عظماء قريش وساداتها حتى ان عبد الله بن الزبير كان يطمع في عطائه ، وكذلك عبد الله بن جعفر وهما من هما من الشرف والوجاهة • وحفل كتاب المجالسة بأخبار هؤلاء الوفود فكانت صفحات أدبية مشرقة ووثائق تاريخية هامة فيها أكثر من معنى يفيد منه المؤرخ الباحث ، والدارس لأحوال هؤلاء العظماء ، وعلاقتهم بمعاوية •

وفي خبر طويل يرويه الحافظ من طريق المجالسة نعلم أن عبد الله بن جعفر كانت له كل عام وفادة على معاوية يعطيه ألف ألف درهم ، ويقضي له مائة حاجة • ولنسمع جانباً من الحديث الذي دار بينهما في إحدى هذه الوفادات • يقول عبد الله بن جعفر (٩) : « لا يمنعك من قضاء حاجتنا وصلة أرحامنا حاجتنا اليك وغناك عنا ، فانه ليس كل حاجة تتم ، ولا كل غنى يدوم ، وقد عودتنا من نفسك عادة صارت لنا عليك فريضة ، ان تقف بنا عندها رضينا ، وان زدتنا عليها حملنا زيادتها » ثم يقول له :

« واعلم أنك لا تقضي لنا حاجة الاقضيانا لك مثلها • ولا تقبض عنا يدك فوالله انه لتجيء منك الفلته من الحرمان فكانما جاءت من غيرك ، يشك فيها الشاهد ،

ويكذب بها الغائب ، ويطلب لها أهل الرأي المخرج لك منها حتى يئاسوا لك من العذر  
ما يجوز الحرمان ، وكذلك يحظك الغالب ، وقدرك الجالب » .

من حديث عبد الله بن جعفر هذا نلاحظ أنه استطاع أن يوفي معاوية حقه ،  
ويحفظ له مكانته ، ولكن الحديث بينهما لم يكن حديث الرئيس والمرؤوس ، لم يكن هناك  
رعية تطلب حاجة ، وخليفة تطلب منه هذه الحاجة ، ولكنه خطاب الند للند ، ومصالح  
متبادلة بين أبناء العم السادة ، ولم يكن معاوية يتوقع غير ذلك من عبدالله بن جعفر ، بل  
انه وجد في قوله ما أثلج صدره ، وأعطاه مآكان يتوقع من الثناء والتقدير ، الا ما كان  
من دالة عبد الله عليه بإشارته الى الحاجات المتبادلة بينهما . وكان منزلة عبدالله بن جعفر  
في نفسه لا يقلقها الا ذلك الود المتبادل بينه وبين علي رضي الله عنه . نلاحظ بعض هذا  
في قول معاوية : « حسبك » . فما يتسع بيت مالي لمكافأتك ، والله ما في قريش رجل أحب  
أن يكون ابن هند منك ، ولكنني اذا ذكرت مكانك من علي ، ومكان علي منك انقبضت  
عنيك . ثم اذكر أنني لا أقيس بك رجلا من قريش الا عظمت عنه ولا أزنك الا رجعت به ،  
فعطفت عليك ، فالغالب على ذلك الأوليان بك مني : وسيلة لا أحب دالتها ، وأثرة  
لا أستكثر عطيتها . . . وأما أن تقضي من حقي ما أقضي من حقك فاني لا أكون على حال الا  
وفي يديك مني أكثر مما في يدي منك » .

ثم قضى حاجاته ، وسدد ديونه . فغضبت قريش الشام ، وقالت : « نظن معاوية  
هائبا لابن جعفر » فكان جواب معاوية شعرا رائعا من أرق الشعر وأعذب . ولعلنا لا نبالغ  
حين نقول : انه من أحسن ما قيل في اللوم والعتاب :

تقول قريش حين خفت حلومها	نظن ابن هند هائبا لابن جعفر
فمن ثم يقضي ألف ألف ديونه	وحاجته مقضية لم تؤخر
فقلت : دعوا لي ، لا أبا لأبيكم	فما منكم فيضي له غير أعور
أليس فتى البطحاء ما تنكرونه	وأول من أثني بتقواه خنصري
وكان أبوه جعفر ساد قومه	ولم يك في الحرب العوان بعيدر
فما ألف ألف فاستكتوا لابن جعفر	كثير ، ولا أمثالها لي بمنكر

ومما يميز معاوية بين الخلفاء والقادة مقدرته على اخماد الفتنة ، وتهدة النفوس  
بأسلوب المداعبة والفكاهة . من ذلك ما رواه التاريخ من طريق السعدي قال (١٠) :

« هجا عقيبة الأسدي أبا بردة بن أبي موسى ، فقال :

وأنت امرؤ في الأشعرين مقابل	وبالبيت والبطحاء أنت غريب
وما كنت زوارا لأملك بالضحي	ولا بمزكيها بظهر مغيب
فان عاد عدنا لابن طغية مثلها	وان أب منها فاللئيم يؤوب

فخرج أبو بردة الى معاوية فشكا اليه عقيبة ، وقال : هتك عرضي . فقال له معاوية : وما قال لك ؟ قال :

وأنت امرؤ في الأشعرين مقابل وبالبيت والبطحاء أنت غريب

وقد صدق . وقال لك :

وما كنت زواراً لأملك بالضحى ولا بمزكيها بظهر مغيب

ولم تكن زواراً لأملك . وقد قال لي ما هو أشد من هذا قال :

فهبها أمة هلكت ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد

معاوي اننا بشر فأسجح فلسنا بالجمال ولا الحديد

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

ارفع يديك ندع الله عليه . فرفع ، ورفع أبو بردة فدعوا الله عليه . »

وكما فطر الله العربي على الفصاحة والجرأة والشجاعة فطره أيضاً على حب الأدب وتذوق الشعر ، وتمييز غثه من سمينه . وكذلك كان معاوية ، فقد كانت له مجالس أدبية يحكم فيها ذوقه بما يسمعه من الشعر ، ويعكم سامعيه ، ويكافئ على ذلك مكافأة كبيرة . ولم ينس السعدي أن ينقل لنا جانباً من هذه المجالس ، منها هذه الندوة الأدبية التي مثل فيها معاوية بن أبي سفيان دور الحكم ، وعبدالله بن الزبير دور الراوي ، قال (١١) : « أذن معاوية للناس يوماً ، فدخلوا عليه ، فاحتفل المجلس وهو على سريره ، فأجال بصره فيهم ثم قال : أنشدوني لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالتها . ثم قال : يا أبا خبيب : فقال : مهيم ؟ قال : أنشدني ثلاثة أبيات لقدماء العرب جامعة من أجمع ما قالتها . قال : نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة ألف . قال معاوية : ان سارت . قال : أنت بالخيار ، وأنت واف كاف . قال : نعم . فأنشده للأفوه الأودي :

بلوت الناس قرناً بعد قرن فلم أر غير ختال وقال

فقال : صدق .

ولم أر في الخطوب أشد وقعاً وكيداً من معاداة الرجال

قال : صدق .

وذقت مرارة الأشياء طرّاً فما شيء أمر من السؤال

فقال : صدق . هيه يا أبا خبيب ، قال : الى ها هنا انتهى بي . قال : فدعا معاوية بثلاثين عبداً على عنق كل واحد منهم بدرة فمروا بين يدي ابن الزبير حتى انتهوا الى داره . »

تعمق هذه الحكاية صفتين أساسيتين عرف بهما عبدالله بن الزبير في التاريخ وهما :  
الحرص على جمع المال ، وحسن التمثل بالشعر ، وكم رأينا ماثلاً به ، واضعاً كل  
بيت موضعه المناسب ، وما هو في هذا الخبر يختار ثلاثة أبيات جامعة فيها خلاصة تجارب  
طويلة في الحياة . ودستور موجز مركز يحذر الانسان من الناس كما يحذره من الاطمئنان  
اليهم ، ويحثه على الحرص خوفاً من الحاجة وذل السؤال .

في مثل هذه الأخبار الأدبية لاتهمنا صحة الرواية بقدر ما يهمنا المعنى الذي تنقله ،  
والأسلوب الذي تروى فيه ومدى مطابقة ذلك للواقع التاريخي . وسواء صحت الرواية أم  
لم تصح فاننا أمام صورة صادقة لمجالس معاوية ، وما كان يدور فيها . وكما يهمنا في  
القصة الصدق الفني ، كذلك يهمنا في هذه الأخبار أن تكون صورة العصر ، يهمنا أن  
نقول : هكذا يتكلم معاوية حقاً ، وهكذا كان يتكلم عبدالله بن الزبير حقاً ، وكما نحرص  
في القصة أن نجد تجربة فنية صادقة ، كذلك يهمنا أن نجد خبراً تاريخياً صادقاً يقبله  
العقل ، ولا يرفضه منطق التاريخ في القرن الأول الهجري ، ومع ذلك فان التجارب علمتنا  
أن هناك تلازماً بين منطق التاريخ وصحة الرواية ، وهو أيضاً ما أوصلتنا اليه معرفة  
أحوال الرجال ودراسة الأسانيد .

قلت فيما تقدم ان مؤلف كتاب المجالسة أموي سعيدي ، وهذا ما يجعلنا نعتقد لأول  
وهلة أنه يحمل نزعة خاصة القصد منها الدفاع عن بني أمية بشكل عام ، ومعاوية الخليفة بشكل  
خاص ، ونظن أن السعيدي عمل على جمع الأخبار التي من شأنها اعلاء مكانة معاوية  
وابراز مزاياه الحميدة ، وفعاله الصالحة ، ولكننا ما نكاد نبدأ بقراءة الأخبار حتى نحس  
بروح موضوعية تحكي ما لمعاوية وما عليه ،

ويصح أن نقول : اننا بعد أن نقرأ عدداً من الأخبار يخيّل لنا أننا أصبحنا نعرف  
معاوية أكثر مما كنا نعرفه ، ولكن ليس أفضل مما كنا نعرفه ، هناك كثير من الأشياء كنا  
نجهلها مما يمكن أن يكون خيوطاً متينة في نسيج التاريخ الصحيح ، منها علاقة معاوية  
بعبد الله بن الزبير ، ونوع الود الذي كان يربط بينهما ، والأسلوب الذي كان يعامل به  
معاوية هذا الصحابي الخطير الذي كان يحمل في نفسه ونسبه وقربه من الرسول ﷺ ما لا  
يحمّله سواه بعد علي وابنيه .

روت أخبار المجالسة أنه كان في مجلس معاوية أكثر من مرة ، وروت لنا أيضاً أنه  
كان لا يترفع عن نيل عطائه ، بل انه ليطمع في هذا العطاء أشد الطمع ، أما معاوية فانه  
كان يعطيه الكثير ، وجود عليه جوداً يتناسب مع منزلته في قريش ، ولعله لم يقصد بذلك  
أن يتألفه فقط ، ولكنه أراد أن يشبع غريزة عرفها التاريخ في ابن الزبير ، وعرفها معاوية  
حق المعرفة فيقطع لسانه ، ومع هذا فلم يكن بين الرجلين ذلك الود الكبير الذي ترتاح  
اليه النفس ، ويطمئن اليه القلب ، كان في أعماقهما الكثير مما تعبر عنه فلتات اللسان  
أحياناً ورب هزل أعظم من الجد في الكشف عن الضمائر ، وإظهار ما تنطوي عليه الدخائل  
ومثل هذا قد لا نسمعه في مجلس عام ولكن حيث تجمع الظروف الرجلين الكبيرين .

يروى الحافظ من طريق السعيد في المجالسة (١٢) « أن معاوية قدم المدينة ، فأقام بها ، فأكثر الناس ، وعرضوا له يسألونه ، فقال يوماً لبعض غلمانه : أخرج لي بغلتي ، إذا قامت صلاة العصر ، فأخرج له البغلة ، فلما صلى العصر جلس عليها ، ثم توجه قبل الشام ، وصيح في الأثقال والناس ، وتبع معاوية من تبعه . ويدركه ابن الزبير في أول من أدركه ، فسار الى جانبه ليلاً وهو نائم ففزع له ، فقال : من هذا ؟ فقال ابن الزبير : أما اني لو شئت أن أقتلك لقتلتك . قال : لست هناك ، لست من قتال الملوك ، إنما يصيد كل طائر قدره . فقال ابن الزبير : أما والله لقد سرت تحت لواء أبي الى ابن أبي طالب ، وهو من تعلم ، فقال : لا جرم والله ، لقد قتلكم بشماله . فقال : أما أن ذلك في نصرة عثمان ثم لم نجز بها . قال : والله ما كان بك نصرة عثمان ، ولولا بغض علي بن أبي طالب لجررت برجلي عثمان مع الضبع . قال : لقد فعلتها ، أنا قد أعطيناك عهداً فنحن وافون لك به ما عشت ، فإن مت فسيعلم من بعدك ! فقال : والله ما أخافك إلا على نفسك ، ولكأنني بك قد خبطت في العباله واستحكمت عليك الأنشوطه ، فذكرتني وأنت فيها فقلت : ليت أبا عبد الرحمن لها ؛ ليتني والله لها ، أما والله لحللتك رويداً ، ولأطلقتك سريعاً ، ولبئس الولي أنت تلك الساعة » .

ان قارئ هذا الخبر سوف يدرك بُعداً ما ينطوي عليه من تلخيص دقيق للصراع السياسي بين المسلمين ، هذا الصراع الذي بدأ بمعركة الجمل ، وانتهى بمقتل عبدالله ابن الزبير ، وذلك التحليل الدقيق لنفسية عبدالله بن الزبير والارهاص بالأحداث التي ستؤدي الى ما أدت اليه .

وسواء صحت الرواية أم لم تصح ، وسيان كان معاوية هو من قدر هذا التقدير كله أم راوٍ أحكم نسيج الخبر ، وأدخل فيه ما أراد ادخاله من حسن تقدير معاوية - وهو ما يستبعد - فانه وثيقة سياسية هامة لمؤرخ أحداث المائة الأولى للهجرة لأن فيه كل ما كان بين عبدالله ومعاوية من مودة ظاهرة تحمل في طياتها الكثير مما فسرتة الأيام المقبلة ، كان عبدالله بن الزبير يظهر لمعاوية طاعة تحتها حقد ، وكان معاوية يظهر له حلاًماً تحته غضب ، ولكن كلا منهما عرف قدر خصمه تمام المعرفة ففضل المداورة والمجاملة على أي شيء آخر .

ليت مؤلف الكتاب سماه : داهية العرب معاوية بن أبي سفيان ، ولكن مثل هذا العنوان سوف لا يشد القارئ ويرغبه كما فعلت كلمة « المجالسة » ، وقد وفق المؤلف تمام التوفيق في اختيار أخبار لمعاوية مع رعيته فيها كثير من الطرافة ، والرغبة في المداعبة ، مثال ذلك ما رواه عن خديج خادم معاوية قال له (١٣) : « ادع لي عبدالله بن مسعدة الفزاري . فدعوته - وكان آدم شديد الأدمة - فقال : دونك هذه - يعني جارية - بيض بها ولدك » .

والحقيقة أن كل خبر من الأخبار التي يرويها ابن عساكر من طريق المجالسة يزيد في توضيح معالم الصورة التي رسمها التاريخ لمعاوية بن أبي سفيان ، ويزيدنا قناعة بضرورة للممة أجزاء هذا الكتاب من التاريخ وبعثه من جديد ، ليس من أجل معرفة أخبار

معاوية . ودراسة سياسته في هذه المرحلة الهامة من مراحل التاريخ العربي ولكن من أجل الكشف عن جوانب هامة من هذا التاريخ لا يمكن أن نتضح على حقيقتها الا في نصف مبشرة من الأخبار ، قد تبدو قليلة الأهمية مطبوعة بطابع الامتاع والموانسة ولكنها تحمل في طياتها حياة أمة ، وملامح جيل ، فيها آماله وأحلامه ، ومبادئه وأهدافه .

استطاع معاوية بن أبي سفيان بدهائه وحكمته أن يتربع على كرسي الخلافة ولكنه لم يستطع أن يقنع عامة العرب والمسلمين أنه ليس هناك من هو أحق منه بالخلافة ، وان هناك عاطفة دينية من جهة ، ونعرة قبلية من جهة أخرى اتحدتا جميعاً لتكونا مرجلاً تغلي به نفوس الناس يمنعهما من الانفجار تلك المسارب الضيقة التي هياها لها معاوية بحلمه ورحابة صدره . وكم من مرة أراد فيها أن يعيث بخصومه فاذا بعثه هذا يتحول الى حمم لاهبة يقذف بها خصومه في وجهه فلا يجد جواباً لها الا الصمت خوفاً من الفتنة .

روى الحافظ ابن عساكر من طريق المجالسة قال (١٤) :

« زعموا أن معاوية جلس ذات يوم بين يديه السماطان ، فدخل الناس وأشراف العرب ، ودخل فيمن دخل شريك بن الأعور الحارثي وافداً ، فلما اطمأن به مجلسه نظر اليه معاوية فقال : ما اسمك ؟ قال : شريك . فقال معاوية : والله من شريك . وانك لأعور ، والصحيح خير من الأعور ، وانك لدميم ، والجميل خير من الدميم ، فيم سدت قومك ؟ فقال له شريك : والله لقد أحميت أنفي ولا بد من اجابتك ، فوالله انك لمعاوية ، وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت ، وانك لابن صخر والسهل خير من الصخر ، وانك لابن حرب ، والسلم خير من الحرب ، وانك لابن أمية ، وما أمية الا أمة صغرت فاستصغرت ، فيم سدت قومك ؟

فقال : يا غلام ، أقمه ، فقام شريك وأنشأ يقول :

أيشتمني معاوية بن صخر	وسيفي صارم ، ومعني لساني
وحولي من ذوي يَمَنٍ ليوث	ضراغمة تهش الى الطعان
يعيرني الدمامة من سفاه	وربات الحجال من الغواني
ذوات الدل في حبرات عَصَب	يجبون الهجان من الحسان
فلا تبسط لسانك يا بن حرب	علينا اذ بلغت مدى الأمان
فان تك للشقاء لنا أميراً	فانا لا نقر على الهوان
وان تك من أمية في ذراها	فاني من بني عبد المَدان

هذا الخبر الذي رواه ابن عساكر من طريق المجالسة عن شريك تناقلته كتب الأدب والتاريخ بروايات مختلفة أقربها الى الصدق ، وأبعدها عن السخف والمبالغات ما نقله لنا ابن عساكر من طريق المجالسة ومن طريق آخر أيضاً .

ومهما يكن نصيب هذا الخبر من الصحة فاننا نجد في الأبيات المتقدمة صورة تلك النعمة التي كانت تنطوي عليها نفوس كثير من العرب لا تكاد تجد لها متنفساً حتى تنطلق هادرة صاخبة .



وشبيه بخبر الأعور مع معاوية خبر الأحنف بن قيس .

روى ابن عساكر من طريق السعدي (١٥) « أن الأحنف بن قيس دخل على معاوية فقال له معاوية : أنت الشاهر علينا سيفك يوم صفين ، والمخذل عن أم المؤمنين ؟

فقال : يا معاوية ، لا ترد الأمور على أديبارها ، فإن السيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا ، والقلوب التي أبغضناك بها بين جوانحنا ، والله لا تمد إلينا شبراً من غدر إلا مددنا إليك ذراعاً من ختر (١٦) ، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو من عفوك ، قال : فاني أفعل .

ان كل من يقرأ هذه العبارات الموجزة البليغة سوف يدرك كيف أن الأحنف آوّر معاوية وأصدره بجمل قليلة مؤثرة فيها اللين ، وفيها الشدة ، ولن يجد غرابة في ذلك فهو الأحنف بن قيس ، هذا الرجل الذي ضرب العرب بحلمه ودهائه المثل . لم يمنعه مركز الخليفة معاوية من أن يذكره بأنه هو من هوى العرب ، وأن غضبه سيجر ثورة لا يستطيع الخليفة اخمادها . وقد روي أن ابنة لمعاوية أو زوجة قالت له - وكانت تسمع ما يدور بينه وبين جلسه من وراء الستار : من الذي يهدد أمر المؤمنين ؟ فقال : رجل اذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه لماذا غضب . وكذلك فان الغضب لم يمنع الأحنف من أن يؤكد لمعاوية أنه ما زال مستعداً أن يبدأ معه صفحة جديدة من الود والصفاء اذا عرف كيف يعفو ويصفح عما مضى .

وكم يتمنى معاوية أن يسمع كلمة مداراة من خصومه يشم فيها رائحة الثناء عليه ، وذكر مزاياه وفضائله ، ولكن هؤلاء الخصوم كانوا أعنف من أن يحنوا رأسهم أمام خليفة وصل الى الخلافة بال المكر والدهاء ، وهم يعتقدون أن في الأمة من هو أحق منه في منصبه ذاك . روى ابن عساكر من طريق السعدي قال (١٧) :

« قدم على معاوية قوم من أهل الكوفة فيهم صعصعة بن صوحان العبدي وعبدالله ابن الكواء اليشكري ، فأنزلهم معاوية داراً من دور دمشق ، وأمر ألا يخرجوا منها . وكان في الدار مسجد يخرجون اليه ، ويتحدثون فيه . فبينما هم يتحدثون اذا أقبل معاوية حتى دخل اليهم فقال : هذا خير لكم من الفتنة . أنشدكم الله ، أي رجل أنا ؟ فسكتوا . ثم نشدهم مرتين فقال له ابن الكواء : أما اذا نشدتنا الله فانك واسع الدنيا ضيق الآخرة ، قريب المرعى ، بعيد الثرى ، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات .

فقام ولم يقل شيئاً . فلما أصبح أمر لهم بجوائزهم وردهم الى الكوفة .

مما تقدم ومن بعض أخبار الوافدات على معاوية التي رواها الحافظ من طريق السعدي (١٨) يتبين لنا أن كتاب « المجالسة » يحكي لنا ذيل معركة صفين ، ويحضر في أذهاننا صورة الرماد الكثيف المتبقي من المعركة ، والذي كان يدفن تحته جمرأ لاهباً لا يحس به الا من يحرك ذلك الرماد . وكان معاوية يحاول في كثير من الأحيان أن يكشف عن الجمر المتبقي لكي لا تخطيء معايير السياسية في ادارة شؤون الأمة .

وهناك في كتاب المجالسة أخبار طريفة تخص معاوية وأقرباءه الأدين بناته وأخواته

وأبناءه ، هذه الأخبار تبدو لنا على جانب كبير من الأهمية لأنها تعطينا صورة للأسلوب الذي كان يتألف به معاوية الناس، وتبين بعض العلاقات السياسية والاجتماعية التي كانت تربط بين العرب ، وكيف أن نخوة الجاهلية بدأت تتسرب الى النفوس (١٩) ، وما زال صوت رسولهم يرن في آذانهم « ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاضلها بالآباء والأجداد » .

وبعد ، فلعل ما قدمته من أمثلة كان كافياً في الكشف عن هوية الكتاب وتحديد موضوعه وبيان أهميته ، وما زال بين يدي الكثير من الأمثلة مما يضيق عن استعراضه الوقت ، فأرجو أن يكون للقارئ العربي لقاء قريب مع « المجالسة » فقد تكشف المصادفة عن أصل مخطوط له في إحدى المكتبات الخاصة أو العامة فيحقق وينشر ، وإذا لم يسعفنا الحظ في العثور عليه فأنني أعد كل من تستهويه الطرفة الأدبية ، والملحة التاريخية من القراء الكرام أنني سأعمد قريباً وبإذن الله الى اللمة ما تناثر من أخبار هذا الكتاب الطريف في جوانب التاريخ الكبير ، وأقدمه اليهم ليزكروا بها كتباً كثيرة من المؤلفات العربية المفقودة وليحسوا بأهمية تاريخ دمشق الكبير الذي حفظ لنا قسماً لا يستهان به من مصادرنا التاريخية التي نزل بها ما نزل بهذه الأمة من محن .

#### □ الحواشي :

- ١ - تاريخ بغداد ٢٩٣/٣ .
- ٢ - في اسناد العافظ الى كتاب المجالسة : « ٠٠ بن عمر ٠٠٠ أبو عمرو » وسأذكر ذلك في موضعه .
- ٣ - كذا في طريق ابن عساكر الثابت الى الكتاب : « جده عمر وكنيته أبو عمرو » فلعل ما جاء في تاريخ بغداد تصحيح .
- ٤ - يتكرر هذا السند بين يدي كل خبر يرويه العافظ من الكتاب ، وكما سكتت المصادر عن التعريف بصاحب كتاب المجالسة سكتت أيضاً عن الترجمة لشيخ العافظ راوي الكتاب . وقد ذكر لنا ابن عساكر في المشيخة ق ٢١١ ب أنه قرأ عليه في جامع المنصور ببغداد .
- ٥ - انظر ٣٣٦/٨ .
- ٦ - انظر ( عبدالله بن جابر - عبدالله بن زيد ) ٤٣٩ .
- ٧ - مثل هذا نجده في خبر عبدالله بن جعفر ومعاوية ، فقد نقل لنا خبراً طويلاً عن وفوده على معاوية في كل عام وما كان يخصصه به . كان ذلك في ترجمة عبدالله بن جعفر . ونقل خبراً في الموضوع ذاته من طريق المجالسة في ترجمة معاوية .
- ٨ - على الرغم من أن كتاب تلخيص المتشابه للخطيب البغدادي قائم على نظام دقيق في عرض الأسماء المتشابهة والتفريق بينها فإنه ذكر بعض تراجمه في غير موضع ولم ينبه على ذلك .
- ٩ - تاريخ دمشق ( عبدالله بن جابر - عبدالله بن زيد ) ٢٣ .
- ١٠ - ( عاصم - عائذ ) ٣٧٥ .
- ١١ - تاريخ دمشق ( عبدالله بن جابر - عبدالله بن زيد ) ص ٤٣٩ .
- ١٢ - تاريخ دمشق ( عبدالله بن جابر - عبدالله بن زيد ) ٤٤١ .
- ١٣ - انظر تاريخ مدينة دمشق م ٢٩ ل ٧٦ .
- ١٤ - تاريخ مدينة دمشق ( متفرقات رقم ٢٣٤ ق ٢٩ ) .
- ١٥ - نسخة أحمد الثالث .
- ١٦ - الغتر : أقيح أنواع الغدر .
- ١٧ - انظر التاريخ ( عبادة - عبدالله ) ص ٣٩٠ .
- ١٨ - انظر تاريخ دمشق ( تراجم النساء ) ص ٤٧٨، ١٩٠ وانظر الوافدات من أهل البصرة والكوفة على معاوية ٤٤ ، ٦٣ .
- ١٩ - تاريخ مدينة دمشق ( تراجم النساء ) ٩٥ ، ٤٦١ .